

تفسير البحر المحيط

@ 61 @ تجمع ، وتدخر الباقي عدة . وفي الحديث : (النهي عن قتل أربع من الدواب :
الهدهد والصرذ والنملة والنحلة) ، خرجه أبو داود عن ابن عباس . وروي من حديث أبي
هريرة : وتبسم سليمان عليه السلام ، إما للعب بما دل عليه قولها : { وَهُمٌ لَا
يَشْعُرُونَ } ، وهو إدراكها رحمته وشفقته ورحمة عسكره ، وإما للسرور بما آتاه الله مما
لم يؤت أحداً ، وهو إدراكه قول ما همس به ، الذي هو مثل في الصغر ، ولذلك دعا أن يوزعه
الله شكر ما أنعم به عليه . وانتصب ضاحكاً على الحال ، أي شارعاً في الضحك ومتجاوزاً حد
الغضب ، وتبسم تبسم المستهزء ، وكان الضحك إنما يكون للسرور والفرح ، أتى بقوله : {
ضَاحِكاً} . وقرأ ابن السميع : ضحكاً ، جعله مصدراً ، لأن تبسم في معنى ضحك ،
فانتصابه على المصدر به ، أو على أنه مصدر في موضع الحال ، كقراءة ضاحكاً . .
{ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي } : أي اجعلي شكر نعمتك وآلفه وأرتبطه ، حتى لا ينفلت عني
، حتى لا أنفك شاكرًا لك . وقال ابن عباس : أوزعني : اجعلي أشكر . وقال ابن زيد :
حرزني . وقال أبو عبيدة : أولعني . وقال الزجاج : امنعني عن الكفران . وقيل : ألهمني
الشكر ، وأدرج ذكر نعمة الله على والديه في أن يشكرهما ، كما يشكر نعمة الله على نفسه ،
لما يجب للوالد على الولد من الدعاء لهما والبر بهما ، ولا سيما إذا كان الولد تقيًا
صالحًا ، فإن والديه ينتفعان بدعائه وبدعاء المؤمنين لهما بسببه ، كقولهم : رحم الله
من خلفك ، رضي الله عنك وعن والديك . ولما سأل ربه شيئاً خاصاً ، وهو شكر النعمة ، سأل
شيئاً عاماً ، وهو أن يعمل عملاً يرضاه الله تعالى ، فاندرج فيه شكر النعمة ، فكأنه سأل
إيزاع الشكر مرتين ، ثم دعا أن يلحق بالصالحين . قال ابن زيد : هم الأنبياء والمؤمنون ،
وكذا عادة الأنبياء أن يطلبوا جعلهم من الصالحين ، كما قال يوسف عليه السلام : {
تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} . وقال تعالى ، عن إبراهيم عليه
السلام : { وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } . قيل : لأن كمال الصلاح أن
لا يعصي الله تعالى ولا يهمل بمعصية ، وهذه درجة عالية . .
{ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا * أَرَى الْهَدْدَ هُدًى أَمَ كَانَ
مِنَ الْغَائِبِينَ * لَاعَذِّبْنَاهُ عَذَابًا شَدِيدًا * أَوْ لَازِدْ بَحْنْنَاهُ أَوْ
لَيَأْتِيَنِّي بَرِئُ طَائِنٍ * مُبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطَّتْ بِرِمَا
لَمْ تُحِطْ بِهِ * وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنَّنِي وَجَدْتُ أَمْرًا } .

تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدَتْهَا
وَقَوْماً مَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّامْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَا يَسْجُدُوا
لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ * فِي السَّمَاوَاتِ * وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا
تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ
الْعَظِيمِ * قَالَ سَتَنظُرُونَ أَصَدَقْتِ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اذْهَبْ
بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ * ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا
يَرْجِعُونَ } . .

الظاهر أنه تفقد جميع الطير ، وذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك والاهتمام
بالرعايا . قيل : وكان يأتيه من كل صنف واحد ، فلم ير الهدد . وقيل : كانت الطير تطله
من الشمس ، وكان الهدد يستتر مكانه الأيمن ، فمسته الشمس ، فنظر إلى مكان الهدد ، فلم
يره . وعن عبد الله بن سلام : أن سليمان عليه السلام نزل بمفازة لا ماء فيها ، وكان الهدد
يرى ظاهر الأرض وباطنها ، وكان يخبر سليمان بذلك ، فكانت الجن تخرجه في ساعة تسلخ الأرض
كما تسلخ الشاة ، فسأل عنه حين حلوا تلك المفازة ، لاحتياهم إلى الماء . وفي قوله {
وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ } دلالة على تفقد الإمام أحوال رعيته والمحافظة عليهم . وقال عمر
رضي الله عنه : لو أن سخله على شاطيء الفرات أخذها الذئب لسئل عنها عمر ، وفي الكلام
محذوف ، أي فقد الهدد حين تفقد الطير . .

قال ابن عطية وقوله : { مَا لِي * لَا أَرَى الْهَيْدُ هَيْدَ } ، مقصد الكلام الهدد ،
غاب ولكنه أخذ اللازم عن مغيبه ، وهو أن لا يراه ، فاستفهم على جهة التوقيف عن اللازم ،
وهذا ضرب من الإيجاز والاستفهام الذي في قوله : { مَا لِي } ،